وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«١٨»

بدوي الجبل
ذاكرة الأمة والوطن



عزيز نصار

بـدوي الجبـل

ذاكرة الأمة والوطن

بـدوي الجبــل

ذاكرة الأمة والوطن

تأليف: عـزيـز نصّــار

رسوم: إبراهيم الحميد

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

بدوي الجبل ذاكرة الأمة والوطن / تأليف عزيز نصار؛
رسوم إبراهيم الحميد .- دمشق: الهيئة العامة السورية
للكتاب، ٢٠١٣م .- ٨٠ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ١٨)

١- ٩٢٨: الأحمد، محمد سليمان ن ٢- العنوان
٣- نصار ٤- السلسلة
مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«١٨»

البيئة والمولد

محمد سليمان الأحمد غلب عليه لقب «بدوي الجبل» هو من مواليد قرية ديفة في محافظة اللاذقيّة، كانت ولادته بين عامي ١٩٠٣- ١٩٠٤م، والده الإمام الشيخ سليمان الأحمد، وهو فقيه وأديب وعالم لغوي.

كتب الدكتور (علي سليمان الأحمد) شقيق الشاعر بدوي الجبل كتاباً عن سيرة حياة والده، وعن مواقفه وأدبه وشعرِه ولنحيط علماً ببيئة البدوي العائلية والأدبية والفكريّة، لابُّد لنا من الاطلاع على الجوّ الغني الّذي عاشَ فيه واستقى منه وهجَ فنّه وإبداعه.

كتب شقيق بدوي الجبل عن الوالد الإمام الشيخ:

ذات يوم من سنة ١٢٨٧هـ الموافق ٦٨- ١٨٦٩م وُلِدَ طفل في قرية صغيرة اسمها الجبيليَّة معلَّقة في أحد السفوح

من أعمال قضاء جبله على بعد نحو عشرة كيلومترات شرقيّ موقع «السخَّابة» المعروف على الطَّريق العام ّ الممتدّ بين اللاذقيّة وبيروت.

هل يستطيع من يعيش الآن أن يكوّن لنفسه صورة عن الزمان والمكان، وعن ظروف الحياة التي كانت سائدة في ذلك الحين؟ لا يكفي أن ينتقل المرء بالفكر من عصر الذّرة والفضاء إلى القرون الوسطى، بل عليه أَن ينتقل إلى أبعد منها بكثير أي حتى القرون البدائيَّة الأولى – ولكن رغم ما في ذلك من صعوبة فلا بُدَّ من مكابدتها كي نَستشرف شيئاً من عظَمة هذا الطفل الذي سيغدو العلامة الكبير، والمصلح العظيم، والقُّدوة المثلى التي تسكن الضمائر، وتُدوّي في الآذان: «الشيخ سليمان أحمد».

وكان الفقرُ يخيّم على الريف والناس يشكون ويعانون من البؤس والتخلّف. وتكاد القرى تخلو ممّنْ يعرف القراءة والكتابة ومن يعرف القراءة يُهجِّئ الحرف ولولا أداء الواجبات الدينيّة وتلاوة القرآن الكريم لعمّت الأميّة. وكان ثمة معلمٍ لمجموعة قرى يسمّونه الخطيب وهو يوشك أن يكون



أميّاً، وما إن يبلغ الإمام سليمان الأحمد سن الصبا الثاني ١٥–١٦ سنة حتى نراهُ وعلى الأغلب بسبب ضيق يد أبَويه يهجر قريته إلى قرية «المرّآن» مِن قرى «القرداحة» تسكنها عائلة كبيرة معروفة، بينه وبينها صلة نسب، وقام هناك بمهمة الخطيب أي معلم الصبيان، وقد لقَي منهم كل تقدير وحُبّ، وبذل كل جهدٍ وإخلاص وبقيت ذكراه فيها عطرة، وأحاطهم بكل حبّه وعونه طيلة حياته.

وبعد سنتين تقريباً نزلَت به مصيبةٌ فادحة بوفاة أبيه وهو لم يبلغ الثامنة عشرة. هل ضاقَت به الدنيا أم أحسّ أَنَّ لديه زادٌ من العلمِ يكفيه ؟ فأحسّ بنداء خفي يدعوه إلى الانطلاق خارج محيطه.

فحمل عصا التجوال وقرَّر أن يتعرف على الناس فلم يترك قرية معروفةً إلاّ وزارها والتقى الأهالي واستمع إليهم وشاركهم في مذاكراتهم العلميّة وأبدى لهم من الشروح ما لم يكنّ معروفاً منهم ولا مألوفاً لديهم فمنهم مَنْ يرغب فيه؛ ومنهم من لا يقبل فتى في مثل سنّه تصحيحاً أو تصويباً.

وقد جعل الإمام الأديب بيته مدرسة داخليّة مجّانيّة وردَ منهلها العديدُ من طلاب المعرفة الّذين تحوّلوا إلى أساتذة لغيرهم وعندما بلغَ الأربعين أصبح المرجع العلمي الأوّل في منطقته وألقى عليه هذا الأمر مسؤوليات جسيمة.

وما إن اتصلتُ بعلاّمة الجيل حتى شعرتُ أنني حصاة ضئيلة أمام جبل شاهق، شعرتُ بأنني أمام خضمّ مترامي الأطراف لا تُعرف شواطئه ولا يُسبَرُ غوره.

تزوج الإمام الشيخ سليمان الأحمد حوالي الخامسة والعشرين من عمره من السيّدة «رائجة عجيب» وهي ابنة بيت أصيل في قرية القويقة الملاصقة لقرية ديفة حيثُ استقرَّ الإمام فيها مدة خمسة عشر عاماً، وكان يتردد عليها لأنّهُ استملك ملكيّة صغيرة وقد أنجبت زوجته عدّة أولاد بقي منهم حيّاً بعدَ وفاتها بنت وصبي، أما البنت فهي المرحومة سُكينة؛ والصبي هو محمد الذي أصبح الشاعر الكبير الملّقب بـــ (بدوي الجبل).

وقد ضاقت الحياة بالإمام سليمان الأحمد وهمّ أن يهجر البلاد إلى ديار أضنة وقد أقنعته نخبة من عارفيّ فضله بالبقاء واختاروا لهُ موقعاً للسكن بينهم، وبنوا لهُ مسكناً في قرية السلاّطة – منطقة القرداحة – وقد توفيّ فيها، وهي تضم ضريحه.

وكان قد تزوج من ابنة الشيخ محمد (دير إبراهيم) الّذي ينتمي إلى عائلة الشيخ علي المرّآن.

وقد أنجبت لهُ أولاداً عدّة:

السيّدة فاطمة وقد كانت أديبة اشتهرت باسم (فتاة غسّان)، ثمّ راوي سيرة الإمام الشيخ ابنه الدكتور علي الّذي قصدَ أوروبا في مطلع الثلاثينيات وتخرّجَ طبيباً.

ثمّ آمنة الّتي تخرجت من دار المعلمين، والدكتورة جمانة وكانت طبيبة في وزارة الصحّة، ثمّ الشاعر أحمد سليمان الأحمد والسيّدة سلمى خرّيجة معهد التربية العالي في مصر، ومحمود وهو أصغر أبناء الشيخ سليمان الأحمد.

منحت الطبيعة التي عاش فيها البدوي جمالاً وسحراً واحتضنت طفولته وشبابه أشجار السنديان والبلوط والأرز التي تقع شماليّ قرية السّلاطة.

دَرسَ الشاعر بدوي الجبل اللغة العربيّة على يد والدهِ، وكان الشيخ الأديب يطلب من أولادهِ أن يتكلموا باللغة العربيّة الفصحى ويحفزهم أن يحفظوا القصائد الجيّدة والمقطوعات الأدبيّة والفقهيّة.

نما البدوي تحيط به رعاية والدهِ مبتدئاً بحفظ القرآن، وقد أبدى ذكاء في الحفظ والاستيعاب وقرأ كثيراً من كتب الأدب، وكان ديوان والده الإمام الأديب المدرسة الحقيقية الّتي تخرّج منها.

درسَ الابتدائية في الجبل والإعداديّة في اللاذقيّة، وقد اعتنى به متصرّف اللاذقية – رشيد طليع – الذي تركها أثناء دخول الفرنسيين إليها في ١٩١٨/١٠/١١م ملتحقاً

بالملك فيصل في دمشق وقد عيّنه متصرفاً لمدينة حماه، ثمّ وزيراً للداخليّة، لقد تطلّع إلى دلائل النبوغ مترقباً توهجه في الفتى محمد فأرسله إلى دمشق لإكمال دراسته فالتحق بمدرسة – مكتب عنبر - فبدأ ينظم الشعر، واقترحه مرافقاً للوفد الفيصلي المتجه إلى الشيخ ثائر في وجه الفرنسيين «صالح العلي» وكان الوفد برئاسة وزير الدفاع آنذاك يوسف العظمة .

بدأ البدوي يكتب الشعر مبكراً، فكان يقدّم كل يوم لوالدِهِ قصيدة، فينظر فيها الوالد ويصححها فإذا البدوي، وهو الشاب الصغير شاعر يكتب شعراً جميلاً فابتسم الوالد ابتسامة الرضا، والاعتزاز، وأمسك بالقصيدة الأخيرة للشاب وقال له، «الآن أصبحت يا محمد شاعراً»، فاذهب وتغنَّ بهذا الشعر، فسوف تكون شاعر البلاد العربيّة في مستقبل الأيام.

وتحدّث الشاعر عن نشأته وثقافته، بإيجازٍ:

«نشأتُ في بيت علمٍ وفقه وأدب، فتأثّرتُ أول ما تأثّرتُ بالقرآن الكريم الذي لا يمكن أن تشرق ديباجة أديب إلا بالإدمان



على تلاوته .. ثمّ تأثّرتُ بالحديث الشريف، وخطب الخلفاء الراشدين، لاسيّما خطب الإمام عليّ (b) كما تأثّرت بخطب الحجاج وزعماء الخوارج.

أمّا بين الكتّاب: فأنا مدينٌ للجاحظ، ولأبي جعفر الإسكافي، ولأبي فرج الأصفهانيّ في كتابه الخالد (الأغاني)، ولأبي حيّان التوحيدي .. كما تأثّرت في الشعر: بالشعراء الفحول في عهدي: الجاهليّة والإسلام.

وتأثرت بشعر أبي تمام والبحتري والمتنبي والشريف الرضي، ومهيار».

إضافةً إلى ذلك، حين سُئل: من أين لك هذا الأدب ؟

قال: من بيت أبي.

معاناة الشاعر

لعلّ مرافقة الشاب (محمد) للوفد الفيصلي إلى الشيخ صالح العلي قد أغضبت الفرنسيين فبحثوا عنه عندما دخلوا دمشق، فالتجأ إلى البطريرك (غريغوريوس حداد) الرجل الوطني، الّذي ظلّ متمسكاً ببيعة فيصل، ثمّ يمّم شطر حماة سيراً على قدميه ليهرب من بطش الفرنسيين وبقي فترة متخفيّاً عن الأنظار، إلى أن دلّ عليه أحد المتعاملين مع جيش المحتلين فألقوه في السجن وقد عُذّبَ، وضُرِبَ بالسياط، حتى أُدميت قدماه، وعانى من وحشيّة الاستعمار، حتى كان المستشار الفرنسي يأمر يوميّاً بإعدام أحد المعتقلين بالقرعة، وكان يأتي بطربوش فيضع فيه أوراقاً تحمل أسماء المعتقلين، فمن كانت الورقة باسمه، سيق إلى ساحة الإعدام ونُفِذَ فيهِ الحكم.

ونُقِلَ الشاعر إلى سجن حمص، ومنه إلى سجن الديوان الحربي ببيروت حيثُ بقي ستة عشر شهراً ونُقِلَ إلى جزيرة أرواد، وكانَ من أوائل المعتقلين الّذين يُساقون إلى أرواد في عهد فرنسا، وقد أثرت تلك الفترة في نفس الفتى، حتى إنَّه وشمَ على ذراعه (تذكار السجن الفرنساوي).

ولقد لفتَ زعماء اللاذقيّة نظر الفرنسيين إلى صغر سن الشاعر المعتقل، فأطلقوا سراحه.

ومن المحطات الحياتيّة المهمّة في سيرة بدوي الجيل، هروبه إلى العراق لاجئاً إليه من بطش الاستعمار الفرنسي، فحين نقض الفرنسيون بالعهد العام ١٩٣٩م ؛ وتقوّض الحكم الوطني، وراحوا يغرون السكان في عدّة مناطق بالانفصال، فظلّ البدوي يدافع عن الوحدة وقطع البادية هارباً إلى العراق، فعمل مدرساً وعاش أحداث الكفاح في سورية.

وشارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني إعلاميّاً في العراق، وقد عادّ إلى سورية بعد إخفاق هذهِ الثورة، فاعتقله الفرنسيون وزجوّهُ في قلعة كسب على الحدود السوريّة

التركيّة، وأثناء اعتقالهِ توفيّ والده، وشارك بعدَ استعادته لحريته في رثاء هنانو في حلب، وانتخب نائباً عن اللاذقيّة بالإجماع. غنّى الوطن والحريّة ورثى شهداءهما.

وقفَ في وجه الانقلابات التي تتالت على سوريّة، وأيّدَ الشرعيّة الدستوريّة، والحياة البرلمانيّة، ولهُ مواقف معروفة، وأسهم البدوي في العمل السياسي نائباً وانتخب ست مرات وكان وزيراً ثلاث مرات.

وقد طُلِبَ من محافظ اللاذقيّة في عهد الشيشكلي اعتقال البدوي، ولكن هذا الرجل حمله بسيارته الحكوميّة إلى الحدود اللبنانيّة، فلجأ البدوي إلى لبنان فلم يقبل المحافظ أن يلعنهُ التاريخ باعتقال الشاعر المناضل.

لقب الشاعر

أُطلِقَ لقب (بدوي الجبل) على الشاب - محمد سليمان الأحمد - الصحفي يوسف عيسى صاحب صحيفة ألف باء.

واستغربَ الشاعر عندما شاهدَ قصيدته منشورة ومذيّلة بتوقيع «بدوي الجبل» وقال لهُ صاحب الصحيفة: «إنّ الناس يقرؤون للشعراء المعروفين، ولسْتَ منهم، وهذا التوقيع المستعار يحملهم على أن يقرؤوا الشعر للشعر، وأن يتساءلوا من ذا يكون هذا الشاعر المجيد؟ وأنتَ في ديباجتك بداوة، وأنت تلبس العباءة، وتعتمر العقال، المقصّب، وأنتَ ابن الجبل".

وتساءلَ الناس عن هذا الشاعر، هل هو خير الدين الزركلي؟ أم هو خليل مردم بك؟ وهما شاعرا الشام

المشهوران حتى إذا انقضى عام دعا صاحب الصحيفة نخبة من الأدباء، وأعضاء المجمع العلمي إلى احتفال، قدّم فيه الشاعر قائلاً: «هو ذا بدوي الجبل، إنّهُ محمد سليمان الأحمد» .

غلب اللقب على الاسم، حتى صار علماً عليه، ومن الطريف أنّهُ عندما كان يحضر مؤتمراً برلمانياً في القاهرة /١٩٣٨م/ لأجل فلسطين، كان يتلّقى لحضور الاجتماعات، والاحتفالات بطاقتين، واحدة «باسم بدوي الجبل» وواحدة باسم النائب «محمد سليمان الأحمد» .

يرجع نسب البدوي إلى الأمير المتصوّف الشاعر «الحسن المكزون السنجاري» الّذي ينتهي نَسَبُه إلى ملوك اليمن كما يؤكد آل البدوي هذا الانتساب.

كانت حياة بدوي الجبل حافلة بالأحداثِ، وقد تجلّت في شعره تجارب إنسانيّة. ومواقف وطنيّة وقوميّة ووجدانيّة، وإنّ دراسة حياة الشاعر تلقي أضواء على شعرهِ وتقدّم المساعدة للنقاد والدارسين...

وقد رحل الشاعر الكبير (بدوي الجبل) عن عالمنا في ١٨ / آب / ١٩٨١م في دمشق، ونقل إلى قريّة السلاّطة – منطقة القرداحة – محافظة اللاذقيّة. ودفن جوار والده الإمام الشيخ الأديب سليمان الأحمد.

لجوء الشاعر إلى العراق

في عام ١٩٣٩م أحسّ بدوي الجبـل أنّ الاستعمار الفرنسي يلاحق الوطنيين، وأنّه يريد به شرّاً ويصدر أمر اعتقاله.

اتجه البدوي نحو العراق وكانت الحرب العالمية مشتعلة، وقد اجتاح الألمان فرنسا في هجوم صاعق، وكانت فرنسا تستخدم العنف والاضطهاد في مواجهة الشعب السوري، ويكتب الشاعر البدوي قصيدة في العراق تجسّد الحالة في بلده وموقفه من المستعمرين؛ عنوانها «إنيّ لأشمت بالجبّار» :

يا سامرَ الحيّ هل تعْنِيْكَ شَكْوَانَا

رقَّ الحَديـدُ، ومَا رَقُّوا لِبَلْوَانَـا

وَيلَ الشعوب الَّتي لَمْ تَسْقِ مِنْ دَمِها

ثَأْراتها الحمرَ أَحْقَــاداً وأَضْغَانــاً

لقد أذاق المستعمرون شعبنا الذّل وهم لا يستمعون إلى الأنين والشكوى ولا يعرفون إلاّ التدمير والقتل والألم.

مديح البدوي:

مدح الشاعر البدوّي المناضلين والثائرين في وجه المحتلّين ورثى رجال الحركة الوطنيّة فخلّد بطولاتهم ومآثرهم وتضحياتهم في سبيل الحريّة والكرامة.

يقول البدوّي عن الشعراء الّذين قدّموا أرواحهم وعطّرت دماؤهم التراب:

أزكى مــن الطيــبِ ريحانــاً وغاليّــة

ما ســالَ مــن دمٍّ قتلانــا وجرحانــا

يعطي الشهيدُ فلا والله ما شهدت

عيني كإحسانهِ فــي القــومِ إحــسانا

وغاية الجُود أن يسقي الثرى دمهُ

عنـــد الكفـــاح ويلقـــى الله ظمآنـــا

ويرثي البدوّي إبراهيم هنانو؛ وهو من الشخصيّات الوطنيّة الّتي قدّر الشاعر دورها في النضال والتحرير.



التزام البدوي

بقضايا الوطن والأمة

ولِدَ الشاعر في مطلع القرن العشرين أي زمن الاحتلال العثماني، ثمّ رافقَ ثورة الشريف حسين بن علي؛ شريف مكة، وواكبَ دخول المستعمر الفرنسي والثورات السوريّة الّتي امتدت على طول الديار الشاميّة، وشهد الحرب العالميّة الأولى والحرب العالميّة الثانيّة، وما انعكس نتيجة لهذهِ الأحداث على الساحة العربيّة؛ إضافةً إلى تمزّق الوطن إلى دويلات والعودة إلى توحيده مروراً بالانقلابات العسكريّة بعد الاستقلال ووصولاً إلى الحكم الوطني والوحدة بين سورية ومصر، فالانفصال، فثورة ٨ آذار، فنكسة ١٩٦٧، فحرب تشرين التحريريّة.

التزم الشاعر بدوّي الجبل بقضايا الوطن، والأمّة، ودافع بشعر رائع وإباءٍ عربيّ.

وآمن أنّ سوريّة قلب العروبة النابض وذلك منذ عام ١٩٢٤م، ورأى أنّ سلامتها تعني سلامةَ الأمة العربيّة:

لقد زعمــوا أنّــي بجلــقَ هــائمٌ

أجــلْ والهــوى إنّــي بجلــقَ هــائمُ

إذا ظلَّ مجدُ العربِ في الشَّامِ ســالماً

فمجدُ بني قحطان في الــشَرقِ ســالمُ

ولمّا استقلّت سورية وتحقق الجلاء غنّى البدوي الاستقلال وأبطاله وندبَ شهداءَهُ، فكانت ملحمة الجلاء المشهورة:

الزغاريــدَ فقــد جُــنَّ الإبــاءْ

مــن صــفاتِ الله هــذي الكبريــاءْ

الوروُد الحمــر ذكــرى وهــوى

وطيــوفٌ مــن جــراحِ الــشهداءْ

يــا فلــسطينُ هــوى مــستعرٌ

مــن ربــى الــشام ونــصرٌ وولاءْ

يتجلّى هذا الاتجاه القوميّ في قصيدته الّتي ألقاها في جونيه بلبنان بمناسبة تكريم شاعر القطرين؛ خليل مطران:

كلّ الربُوعِ ربوعِ العُرْبِ لي وَطَنٌ

مَــا بَــيْنَ مُبْتَعِــدٍ مِنْهَــا ومُقْتَــرِبِ

للــضّادِ تَرْجِــعُ أَنــسَابٌ مُفَرّقَــةٌ

فالــــضادُ أفْــضَلُ أُمٍّ بــــرّةٍ ، وأبِ

وطلبَ الشاعر من الشريف حسين بن علي أثناء زيارته لعمَّان عام ١٩٢٣م، أن يحقق الوحدة العربيّة:

وحّــــد العـــربَ وأســـعدْ أمّـــةً

ســادت العــالم فـــي ماضـــي الـــسنين

ويلقي قصيدة مطوّلة في الحفلة الّتي أقامها المجمع العلمي العربيّ في دمشق، وفيها يتحدّث عن الوحدة العربيّة، ويتحدّى السياسة الّتي تتنكر لهذه الوحدة، كما يتحدى الدول الغربيّة الّتي تنكر حق العرب وتغتصبهُ، وقد كتب قصيدته عام ١٩٢٤م:

وعقيـــــدةٌ وطنيّــــةٌ عربيّـــــةٌ

فيهـــا نـــصول علـــى العـــدى ونَطُـــولُ

يا غاصبي حـــق العروبـــة حـــسبُكم

منّــــــا فـــــروعٌ للعــــلا وأُصـــــولُ

وقد وقف البدوي يهدّد ويتوّعد عصبة الأمم الّتي فرضت انتدابها على ديار العرب ويستغرب كيفَ لا تستيقظ الجزيرة العربيّة من نومها:

ما للجزيرة لا تفيـــق مـــن الكـــرى

طَلَـــعَ الـــصباح فنبهـــي آســـادَها

بِنـــتُ الغـــزاة الفـــاتحين تحكّمـــتْ

فيهـــا العُـــداةُ وأحكمـــتْ أصـــفادَها

وقالَ في قصيدته الّتي ألقاها في المجمع العلمي العربيّ مشيراً إلى الزعيم الوطني (عبد الرّحمن الشهبندر):

أرجعـــتُمُ صُـــوَرَ العروبـــةِ غـــضةً

فكـــــأنكم أرجعــــــتُمُ إعــــــصارَها

ورفعـــتم ركـــنَ القـــضيّة عاليـــاً

بجهــــادكم وكــــشفتم أســــرارَها

حـــسبُ العروبـــة أنكـــم لبيّـــتمُ

يـــومَ النّـــداء وكنـــتُمُ أنـــصارَها

ما أجمل الصورة الّتي رسمها في رثاءِ الزعيم اللبناني رياض الصلح، يقول:

ســـالفُ الـــشرق مِلـــكُ قحطـــانَ

واليـــومُ لقحطـــانَ والغـــدُ المـــأمولُ

ولـــه هـــذهِ الجبـــال المنيفـــاتُ

وتلـــكَ الربـــا وهـــذي الـــسهولُ

أرزُ لبنـــانَ أَيْكَـــةٌ فـــي ذُرانـــا

والفُراتـــان ماؤُنَـــا، والنِيْـــلُ

ورياحِيْنُنا على تُـونِسَ الخـضْرَاءِ

خـــضراءُ أيْـــنَ مِنْهَـــا الـــذُبُولُ ؟

ما شَكّتْ جُرْحَهــا عَلَــى البُعْــدِ إلاّ

رَفَّ قَلْبـــي عَلَـــى الجِــرَاحِ يَـــسيلُ

ينتقل الشاعر من أرز لبنان إلى الفراتين ورياحين تونس الخضراء، ويقدم لوحةً رائعة تتجلى فيها أمجاد العرب وعزّتهم وعظمتهم التي تشمل الوطن العربي وتؤكد القصيدة استمرار المجد تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً.

ويقول البدوي عن بيت العروبة:

من بعــض أسـماء العروبــة أرزه

يـــومَ الفخـــار ونيلُـــه وفراتـــه

يسمو الشاعر بالحب فوق جراحه في قصيدة «البلبل الغريب»؛ يطوف الشاعر في ربوع الوطن. وقد بدأت رحلة العشق الوطني من اللاذقيّة بقوله:

سَــقَى الله عِنْــدَ اللاذقيّـــةِ شــاطِئاً

مُرَاحـــاً لأحْلامِـــي ومَغْنَـــىً وملْعَبَـــا

وأرْضى ذُرا الطّودِ الأشَـمِّ فَطَالَمــا

تَحَــدَّى، وســامَى كُــلّ نَجْــمٍ وأَتْعَبَــا

وجادَ ثَرَى الــشَهْباءِ عِطْــراً كأنَّـــهُ

على القَبْــرِ مـــن قَلْبـــي أُرِيـــقَ وذُوِّبَـــا

وَحيَّا فَلَــمْ يُخطــئْ حمـــاةَ غَمامُـــهُ

وزَفَّ لِحمـــصَ العَـــيْشَ ريَّـــانَ طَيِّبَـــا

ونَضَّرَ في حَوْرَانَ سَـــهْلاً وشـــاهِقاً

وبَـــاكَرَ بـــالنُّعمى غَنِيَّـــاً، وَمُتْرَبـــا

ويتجه إلى المنطقة الشرقيّة من الوطن، يدعوها بـــ«الجزيرة»:

وجَلْجَل في أَرْضِ الجزيـــرَةِ صَـــيِّبٌ

يُزاحِمُ في السُّقيا، وفـــي الحُـــسْنِ صَـــيِّبَا

قدّمَ الشاعر موضوعاً وطنيّاً وقوميّاً في قالب ساحرٍ فأعطى القارئ الإحساس المشتعل والمتعة الجماليّة الشعريّة، فالمضمون التاريخي أو القوميّ أو الذاتي عندَ البدويّ يتحد مع الجمال اتحاداً عجيباً، وقد استطاع أن يجعل الوطن شعراً رائعاً وفناً متوهجاً.

واستطاع أن يكون شاعراً أصيلاً وشاعراً حديثاً في الوقت نفسه، فقد امتلك الشعور المرهف والمعاناة وصوّر

الحاضر تصويراً جميلاً يخرج من القلب والوجدان ويتسلّل إلى القلب والوجدان.

يغني للوطن ويتذكّر قبور المناضلين في قصيدة «ابتهالات» التي كتبها في غربته. ويلتقي جمال الشام بجمال البحيرة السويسرية في (جنيف) ويسطع الشوق والحنين في هذه القصيدة إنها أدعية.. وأشواق للبهاء والروعة.

لقد تعانقت المشاعر الوطنيّة والقوميّة في صدر الشاعر، وغنى للشام والقدس وبغداد ولبنان وذكر كلّ البلاد العربية في شعره، وقصائده في المناسبات وفي رثائه للراحلين، وتهنئته.. متوهجه بهذه المشاعر.

بدوي الجبل هو شاعر الوطن والأرض شاعر التراث والتراب. وجاءت قصائده في مقاومة الغزاة لتعبر عن التزامه ومكابدته ومعاناته؛ ارتبط بالقضيّة الوطنيّة وبحركة الثورة العربيّة الأولى.

ومقاومة الاستعمار كانت همّه وعقيدته في أدبه وإبداعه، وكان يريد الحرية وجلاء المستعمر ويرفض الطغيان والاستبداد ويريد رحيل الطغاة المستبدين .

يعبر الشاعر البدوي عن فرحه بجلاء المستعمر عن أرض الوطن وفي ذاكرته وقلبه «الشهداء أكرمُ مَنْ في الدنيا وأنبلُ بَني البشر"، فيرى أنّهم في الجنّة.

شـــــهداء الحـــقِ فـــي جنّـــتهم

هـــزّهم للـــــشام وجــــدٌ ووفـــاء

ويهدي البدوي ديوانه الأوّل «البواكير إلى يوسف العظمة، إلى مثال البطولة العربيّة إلى الشهيد الراقد في ميسلون إلى تلك الروح الكبيرة التي تمردت على العبوديّة وعلى الحياة».

جــلَّ هــذا الــدّم أن يُرثــى لــه

عــارُ ســفا كيــه أولــى بالرثــاءِ

الرُّبــا فــي ميــسلون اســتعبرت

أينَ دمــعُ الحــزنِ مــن دمــع الهنــاءِ

رثى بدوي الجبل «سعد الله الجابريّ»، الّذي تولّى رئاسة الوزارة، وكانَ قائداً وطنيّاً ورئيساً لمجلس النواب. وقد توفي في حلب ودفن إلى جوارِ هنانو.

ورثى الشاعر البدوي «فارس الخوري»، وقدم لقصيدته بقوله «في رثاء الفقيد العظيم» وكانَ فارس الخوري من رجالِ الحركة الوطنية البارزين.

فيه عمــقُ البحــار تزخــر بالــدُرِّ

وفيــــــه متـــــــارفُ الموســــــيقا

الشام كلمة تضم تاريخيّاً وجغرافيّاً؛ سوريّة ولبنان وفلسطين والأردن؛ ويقال عنها بلاد الشام.

وكلمة الشام نطلقها على مدينة دمشق، وقد عشق البدويّ الشام وجعلها أغنية حب لا ينتهي، يقول الشاعر في قصيدة له عام ١٩٢٤م:

لا تلمْــــــه إذا أحــــــبَّ الـــــشآما

طابـــــت الـــــشام مربعـــــاً ومُقامـــــاً

هات حِــدّثْ عــنَ الــشآم وحــدّث

وأطــلْ فـــي الحــديثِ عنهــا الكلامــا

مــا عرفَــتُ الغــرام لــولا رباهــا

مــن رُبـــا جلّـــقِ عرفـــتُ الغرامـــا

مـــن أغـــاني طيورهـــا ســـاجعاتٍ

قـــــد تعلمـــــتُ هـــــذه الأنغامــــــا

لقد تعلّم الشاعر البدوي الحب من الشام، والأنغام من طيورها الصادحة. آلام العرب واحدة؛ وقد وحدتهم النكبات والأحزان، وما دامَ العرب أصحاب تاريخ مشترك، فمن الطبيعي أن تكويهم الآلام، ويتألم الأخ لألم أخيه، ويحسّ بوجعه، قال الشاعر:

أرزُ لبنـــانَ أَيْكَـــةٌ فـــي ذُرانـــا

والفُراتـــــان ماؤُنَـــــا، والنيْـــــلُ

ورياحِيْنُنا على تُــونِسَ الخــضْرَاءِ

خــــضراءُ أيْـــنَ مِنْهَـــا الـــذُبُولُ؟

ما شَكَتْ جُرْحَهــا عَلَــى البُعْـدِ إلاّ

رَفَّ قَلْبـــي عَلـــى الجِـــرَاحِ يَـــسيلُ

كانت العلاقة بين الشام والعراق في القرن العشرين؛ صعبة معقدة بفعل النزاعات والخلافات الإقليميّة والأوضاع الدوليّة.

وبفعل مواقف الحكام؛ يرى الشاعر أنّ القطرين يتكاملان:

يا ابن الشاَمِ وما نظمــتُ قــصائدي

إلاّ لهـــــــزّ عراقِهــــــا وشـــــــآمِها

فإن تحركَ البلدين يعني أنّ الأمّة تتحرك فتنبثق الآمال والأحلام ويخفق قلب الأمّة، ويرفض البدويّ الحدود بين البلدين الشقيقين فهي حدود صنعها الاستعمار.

لـــيسَ بـــينْ العــراق والـــشام حـــدٌّ

هـــدمَ اللهُ مـــا بنـــوا مـــن حــــدودِ

تتجلى في شعر بدوي الجبل مقومات القوميّة العربيّة، وقد أوضحَ هذا الاتجاه البارز عندَ البدوي كثير من الباحثين.

البدويّ واللغة العربيّة

قال الشاعر البدوّي عن اللغة العربيّة:

كلّ الربُوعِ ربوعِ العُرْبِ لــي وَطَــنٌ

مَــا بَــيْنَ مُبْتَعِــدٍ مِنْهَــا ومُقْتَــرِبِ

للــضّادِ تَرْجِــعُ أَنــسَابٌ مُفَرّقَــةٌ

فالـــضادُ أفْـــضَلَ أُمٍّ بـــرّةٍ، وأبِ

تَفْنى العُصورُ، وتَبْقَى الضَادُ خَالــدةً

شجىً بِحَلْــقِ غَريــبِ الــدارِ مُغْتَــصِبِ

تتجلى قوميّة البدويّ في شعره. فبلاد العرب واحدة وإن تمزقت أقطاراً ودولاً. هو لا يقبل الحدود الّتي فرضها المحتلّون.


لقد زعموا أني بجلق
هائم
أجل والهوى
إني بجلق
هائم

إنّهُ يؤمن بوحدةِ الأرض العربيّة وباللغة العربيّة.. فلغة الضاد تجمع وتوحّد وهي تختزن تراث الأمّة وتاريخها وأمجادها.

ينتسب إلى اللغة العربيّة الناطقون بها، والعربي ليس من انتسب إلى الأجداد العرب إلى قحطان وعدنان فحسب بل من نطقَ بالعربيّة. وهذهِ نزعة إنسانيّة منفتحة وحضاريّة، ليسَ هناك عنصريّة وتعصب قومي.

يذكر البدويّ لبنان في شعرهِ ويتخذ هذا الاسم عنواناً في بعض قصائده، إنّ تاريخ سوريّة ولبنان مشترك وجذورهما عميقة وتراثهما خالد.

لي مَوْطِنٌ في ربا لُبنَــانَ مُمْتَنِــعٌ

ولي بَنُو العَــمِّ مِــنْ أبنائِــهِ النُجُــبِ

لُبنانُ والغُوطةُ الخَضرَاءُ ضَــمَّهُما

مَا شِئْتَ من أدَبٍ عَــالٍ ومِــنْ نَــسَبِ

القضيّة الفلسطينيّة هي القضيّة الأهم الّتي تؤرق العرب وتؤلمهم – إنّها نكبة فادحة في تاريخنا المعاصر، وسكنَ همُّ فلسطين عقل البدوي وقلبه ووجدانه، وصوّر الشاعر الحب

النابض في القلوب بكل بقعة من بقاع الوطن العربيّ. إنّهُ ولاء والتزام بالدفاع عن فلسطين لنيل الحريّة واسترداد الحق.

يَـــا فِلِـــسطينُ هـــوىً مـــستعرٌ

مِـــنْ رُبـــا الـــشامِ، ونَـــصرٌ، وولاءْ

الشاعر والحب

تغنّى البدوي بالحب؛ وعبّرَ عن مشاعره نحو مَنْ يحب، وصوّرَ تجاربه، فقد كانَ مفتوناً بالسحرِ والجمال وكانت عواطفه تسيل من قلب مرهف وصدر يخفق يخاطب الحبيبة «ميّ» في قصيدة عنوانها (إلى الحبيبة الصغيرة):

حبّي وإن شَطّ النـــوى بمـــزاركم
حبّـــي وأشـــواقي لكـــم أشـــواقي
لا ترقبوا منّـــي تناســـي عهـــدكم
إنّ الوفـــاء المحـــض مـــن أخلاقـــي

وهناك قصيدة تغنيها فيروز، عنوانها «خالقة» وهي قصيدة وجدانيّة متوهجة ساحرة:

من نُعْمياتِكِ لـــي ألـــفٌ منوّعـــة
وكـــلٌّ واحـــدة دنيـــا مـــن النـــورِ

رفعْتِني بجنــاحي قــدرةٍ وهــوى

لعــالمٍ مــن رؤى عينيــكِ مــسحور

وهذا الحب الّذي يصوّره البدوي حب رائع عجيب يمتلئ بالألوان والأنوار المتألقة المتنوعة.. ويتحدّث الشاعر عن الصوت الساحر للحبيبة:

كأنّ همسك في ريَّــاه وشوشــةٌ

دار النـــسيمُ بهــا بــين الأزاهيــرِ

تندى البراءة فيهِ فهــو منــسكبٌ

من لَغْو طفل ومــن تغريــدِ عــصفورِ

غربة بدوي الجبل

عاش الشاعر خارج بلده مغترباً في لبنان والعراق وفي أوروبا، فقد اضطرَّ إلى النزوح والابتعاد عن الأهل والآخرين، وقد كانَ اغتراب الشاعر هرباً من ظروف قسَت عليه؛ وعصفت به مشاعر القلق والشوق والحنين. ولجأ إلى الفرار أيام الاستعمار، وقد فَرَّ في عهود لاحقة – ويصوّر الشاعر غربته في ثلاث قصائد هي (البلبل الغريب، عادَ الغريب، وحنين الغريب).

وربما كان الشاعر لا يحس بالندم على ما أصابه، إنّهُ موقف لا يحيد عنه.

ويا رَبِّ دَربٌ في الحيـــاةِ ســـلكتهُ

وما حدتُ عنهُ لـــو عرفــتُ المغيّبــا

ويقول في قصيدة أخرى:

تطوّحني الأسفارُ شــرقاً ومغربــاً

ولكـــــنّ قلبـــــي بالــــــشآم مقـــــيم

وما نال من إيماني السمحِ أننـــي

أصــلّي لهـــا فـــي غربتـــي وأصـــوم

وللمجــدِ أعبـــاء ولكنّهـــا منـــى

وللمكرمـــــات الغاليـــــات همـــــوم

يعبر الشاعر عن أنّ الأسفار تتقاذفه كما تريد، إنّه يرتحل تاركاً داره وبلده، ويرتحل بجسده أمّا قلبه ففي الشام الّتي يعشقها...

إنّ حبّهُ لها هو حب للأمجاد العربيّة وللتاريخ المشرق وللتراث العظيم، حب لكل ذرة تراب وللأهل والناس والشعب.

ويصلّي الشاعر من أجل الشام ليزدهر فيها الخير والعطاء والمجد .

البدوي والتصوّف والتأملات الروحيّة

أحبّ الصوفيون الجمال الإلهيّ والذات الإلهيّة وهجروا الدنيا، والتصوف إصراراً على المحبّة مهما تكن المكابدة متعبة والمعاناة مرهقة؛ ففي قصيدة «الكعبة الزهراء» رحلة روحانيّة رحلة حج وجدانيّة.

بنور علـــى أمِّ القــرى وبطيــبٍ
غسلْتُ فــؤادي مــن أســى ولهيــبِ
لثمتُ الثرى سَبعاً وكحّلْتُ مَقلَتــي
بحــسنٍ كأســرارِ الــسماءِ مهيــبِ

الجانب الإنساني:

قدّمَ الشاعر الباحث (محمد عبّاس علي) دراسة عن الجانب الإنساني في شعر بدويّ الجبل في الندوة المنعقدة في

دمشق عام ٢٠٠٥م والباحث من الّذينَ تربوا على إبداعه وتأثروا بأسلوبهِ، وجاء في دراسته:

«إن الحب يفيض عند البدوي بالإنسانيّة والخير والنعمة، إنّه نور ورحمة.

فآمنتُ أنّ الحب : خيــر ونعمـــةٌ

ولا خيرَ عندي فـــي وغــى وحـــروبِ

وآمنتُ أنّ الحبَّ نـــورٌ ورحمـــةٌ

ويكفـــــرُ بـــــاللألاء كـــــلُ مُريــــــبِ

والحب عند الشاعر هو تجسيد لإيمانه بالفكر الإنساني الكوني، وهو يتحمّل أعباء الإنسانيّة وهمومها وأحزانها. يقول البدوي:

أنا أبكي لليل أوحشه البدرُ ولِلقلـــب هــدّهُ الحرمـــانُ

أنا أبكي للهمّ يأوي إلى القلبِ فيقسو على الغريب المكانُ

أيّها المذنبون هذا فؤادي من معاني جراحه العنفــوانُ

لم أَضِقْ بالهموم قلباً وهل ضاقَ بشتّى عطــوره البــستانُ

فأنا الوالد الرحيم وأبنائي همــومُ الحيــاة والأشــجانُ

وقد أحبّ البدوي الطفولةَ واعتنى بها ومنحها ما تستحق من عطف ورقة وحنان.

ويا ربِّ من أجل الطفولة وحــدها

أفضْ بركاتِ الــسلمِ شــرقاً ومغربــا

وصُنْ ضحكة الأطفال يا ربِّ إنّهــا

إذا غرَّدت في موحش الرمــل أعــشبا

وإنّ تجارب الشاعر البدوي الوطنيّة ومواجهة الاستعمار االفرنسي قد أرغمته على الاغتراب فأثارت عواطفه.

وجعلته أكثر إيماناً بالإنسانيّة وهو الشاعر المبدع الإنسان، والمبدعون يطمحون إلى القيم النبيلة ويتفجروّن محبة وعطاءً وسموّاً».

قصائد البدويّ تذوب في الأرواح والأنفس؛ قصائده كبرياء وحب للناس والوطن ويقول البدوّي (إنّ الله وحده هو الّذي يخلق الشاعر).

إنّ النزعة الإنسانيّة في شعر بدوي الجبل ترجع إلى البيئة الّتي عاش فيها وإلى الاقتداء بالأب الشيخ الأديب سليمان الأحمد الّذي كانَ يكرّم النّاس ويرشدهم ويعلّمهم ويحبهم، كما أنّ البدويّ كانَ واسع الاطلاع. وتأمّلَ تجارب إنسانيّة عانى فيها النّاس من القهر والظلم والحرمان.

ومنذ أن تفتّح وعيه رفضَ الظلم وواجهه الاضطهاد والمستعمرين، فاعتقلوه وذاقَ مرارة السجن، فارتحلَ وعاشَ غريباً شريداً خارج وطنه.

تمتّعَ البدوي بمشاعر العطف والإنسانيّة.. لقد أعطى أبناءه وأسرته كل حب وسالت روحه قصائد جميلة عطرة تحمل الشوق الصادق والعاطفة الدافئة، وقد عبّرَ البدوي عن حبّه لوالده الأديب العلاّمة ولحفيدهِ ويطالب وهو لاجئ في العراق مسافراً إلى بلده؛ أن يتوجه إلى اللاذقيّة حيث يقيم والده وقد أصابه المرض، ويتألم الشاعر لأنّهُ لا يستطيع زيارته.

وانزلْ على خير الأبّــوة رحمـــةً

تـــسَعُ الحيـــاةَ وعفّـــةً وصـــلاحا

يشكو السَقام فإن هتَفْــتَ أمامــه

باســمي.. تهلّــلَ وجهــه وارتاحــا

إنّها علاقة إنسانيّة ساميّة بين الشاعر والأب، وأهدى البدويّ قصيدة إلى حفيده «محمد» بعنوان: «البلبل الغريب» وهي من روائع الشعر الإنساني.

هل دلَّلتْ لــي الغوطتــان لُبانَــةً

أحبَّ من النعمــى وأحلــى وأعــذبا ؟

وسيماً من الأطفال لولاه لم أخَــفْ

على الــشيب أن أنــأى وأن أتغرّبــا

والحريّة عند الشاعر هي إيمان بكرامة المظلومين وإنسانيتهم:

قُل للألى استعبدوا الدنيا لــسيفهم

مَنْ قَسّمَ النَّــاسَ أحــراراً وعبــدانا؟

شعر البدويّ يحلّق ويحلّق، ونجد بعض الشعراء تتراوح قصائدهم بين المستوى الجيّد والعادي أو الضعيف؛ لكن عظمة البدويّ أنّه كان شاعراً لا يقدّم العادي والضعيف، ويسمو كالنسر في السماء وفوق القمم العالية.

قدّمَ البدويّ موضوعات متعددة متنوعة وكان عاشقاً للعروبة والقوميّة، أكدَ ذلكَ في محاضرته الّتي ألقاها في بيروت وحملت عنوان «القوميّة العربيّة»، وجاء فيها «لقد آمنتُ بالعروبة لأني آمنت بالحق والخير والجمال ومن أراد العروبة إيماناً في قلبه وفناء في حبّه وأُنساً في وحشته وهناءة في سريرته وعالماً في وحدته فليقتربْ إلى نعمتها بالحق والخير والجمال».

كم تغنى بالوطن ودعا إلى هدم الحدود بينَ أقطار الوطن العربيّ، فانتقلَ إلى آفاق القوميّة الرحيبة، ويصدح صوت البدويّ في الوجدان والقلب ويبقى في ذاكرتنا الوطنيّة والقوميّة والإنسانيّة.

ويمكننا أن نقول إنّ الإبداع يعني أن يتجاوز المبدعون ما قيلَ أو كُتِبَ قبلهم، وما أصعب أن يكتب الشعراء بعد بدويّ الجبل ! فقد اجتمع بعصره شعراء كبار وجاء بعدهُ آخرون لكنّهم لم يصلوا إلى الذروة الّتي ارتقاها بشعره وظلّوا على السفوح. ونستطيع القول إنَّ البدوي هو كبير الشعراء في هذا العصر.

القيم العربيّة عندَ البدويّ

التزمَ الشاعر بالأخلاق العربيّة الإنسانيّة والقيم الرفيعة، ويتعلّق البدوي بالمروءة والشهامة. وقد تعلّق بالوفاء فما غدرَ بصديق والتزم بعهده.

وأنا الصاحب الوفيّ فمــا خنــتُ

حبيبـــــاً ولا تناســــيتُ عهـــــدا

ويرى أنّ الإيمان محبة ورحمة وحريّة وعقيدة، وحريّة فكر:

آمنتُ بالفرد حــراً فــي عقيدتــه

وكلّ فردٍ ومــا والــى ومــا اعتقــدا

وقد وقفَ في وجهِ الطغاة الظالمين وهم في رأيه يستحقونّ السخريّة، وقلب الشاعر يحترق على الأوطان الّتي تقع تحتَ

طغيانهم، ولكن الشعوب تفوز في النهايّة على الظالمين المستبدّين:

كل طاغٍ مهمـــا اســتبّدَ ضــعيفٌ

كــلّ شــعب مهمـــا اســـتكانَ قـــديرُ

إنّ الطغـــــــاة ســــــــينهزمون

وإن الــشعب هــو القــادر المنتــصرَ

غدر ومغفرة:

يهدي قصيدته «وفاء القبور» إلى ابنته جهينة الوردة النديّة الّتي استأثر بها الله في ربيع صباها فهي بين يديه في جنّة الخلود عطر ونغم وجمال. ويشكو من عقوق بعض الأصدقاء، وعدم التزامهم بالوفاء:

قد عقّني الصَحْبُ حتى لا أضيق به

إن عقّني الأقر بان الــسمعُ والبــصرُ

وما وفى لي ممّنْ كنــتُ أوثــرهم

إلاّ القبـــورُ وإلا الأيــــكُ والنَهـــرُ

عانى الشاعر من العقوق وغدر النّاس، وإنّ كلمة عقوق تعني أنّ الّذين غدروا هم أصدقاء للشاعر أو أقرباء.

والأصدقاء هم إخوة له فهو يحبّهم ويُخلص لهم ويتوّقع منهم أن يبادلوه إخلاصاً بإخلاص والشاعر حزين ومتشائم، فلا يجد لمسة وفاء عند الناس ولم يكن وفيّا ً لهُ إلاّ القَبور والشجر والنهر.

ويعني بالقبور الموتى الّذينَ يحبهم ويفتقدهم، ولعلّ الشاعر يقصد نهر بردى ويرمز به للشام الّتي يعشقها.

وفي قصيدة «اللهب القدسي» عاطفة وجدانيّة ومشاعر صوفيّة، وقد ذكر فيها الغدر.

إن نحمل الحزنَ لا شكوى ولا ملــلُ

غــــدرُ الأحبّـــةِ حـــزنٌ مـــا احتملنـــاهُ

ليــتَ الّــذين وهَبنــاهُم ســرائرَنا

في زحمةِ الخطــبِ أغلــوّا مــا وهبنــاهُ

ولا وفـــاء لقلـــب حـــين نـــؤثره

حتـــى تكـــون رزايانـــا رزايـــاهُ

حـــسبُ الأحبّـــةِ ذلاً عـــارُ غـــدرِهمُ

وحــــــسبُنا عـــــزّةً أنــــا غفرْتـــــاهُ

يؤكد الشاعر أنّهُ لا يحتمل الغدر، فهذا شيء محزن وموجع وخاصة إذا جاء الغدر من الأحبة.

لقد وهبَ الحبّ لهم ويتمنى أن يقدّروا حبّه وأن تكون الهموم واحدة، وأن يشاركوه في المصائب ويعتزّ الشاعر بأنّه يصفح عنهم ويغفرُ لهم ويمدح أحد أصدقائه بأنّه لم يغدر.

ولـــم تهـــادنْ قويّـــاً فـــي تحكّمـــهِ

ولا غدرْت وشـــرُّ النـــاس مَـــنْ غـــدروا

الصحراء في شعره

لقب الشاعر محمد سليمان الأحمد هو البدويّ، لكنّه بدوي من الجبل. وقد ذكرَ الصحراءَ في شعره كثيراً.

والصحراء كما يرى الدكتور – فاروق سليم – هي «فضاء واسع لا نبات فيه وبحور من الرمال. غير أنّها تحتضن مواقع نابضة بالحياة تتقارب أحياناً وتتباعد أخرى وتتّسع في بعض الأماكن وتتضاءل في بعضها الآخر، ومن ينظر في خريطة الوطن العربيّ يدرك غلبة الطابع الصحراوي فإذا قرأ التاريخ العربي فسوف يلحظ أهميّة الصحراء في تكوين ثقافة العرب وقيمهم الفنيّة والجماليّة» .

وكانَ الشاعر ممتلئاً بعزّة الصحراء وكبرياء الجبل، وهو يجعل صحراء الشام والعراق واحدةً.. وإنّ البحر في اللاذقيّة يشتاق إلى رحلة في نهر الفرات ونهر دجلة؛ ولصحراء



سيناء أهميتها عند الشاعر فهي تصل وادي النيل بالشام. ويقدّم الشاعر مشاهد من الصحراء.

وكانَ الشاعر يستفتح القصيدة القوميّة بأجواء الصحراء كما في قصيدة «جلونا الفاتحين».

لقد أحبّ الشاعر الصحراء وهو يشمّ رمالها ويتوحّد معها:

توحّدْتُ بالـصحراء حتّـى مغيبُهـا

ومـشهدُها مـن مـشهدي ومغيبـي

وقد توهجتْ طبيعة الصحراء من صبر وتضحية ليقاوم مصائبه وأحزانه:

وصبرٍ من الصحراء أحكمتُ نـسجَهُ

سـموتُ بـهِ عـن محنتـي وكروبـي

وإنّ الحفاظ على القيم الأصيلة لا يعني الجمود فالشاعر يريد التجديد ويؤمن به مع القديم الصحيح الذي يجب ألاّ نهمله لأنّهُ قديم.

والجديد لا يجوز أن نبتعد عنه أو نحاربه لأنّهُ جديد .. إنّ الحياة متجدّدة .. لكنّ هناك تراثاً جميلاً يجب أن نأخذ منه الجوانب المشرقة المضيئة وينبغي أن ننهل منه ونستقي ما يلائمنا ويفيدنا:

صـــورٌ للقـــديمِ تعرضُـــها الـــدنيا

ضــــياءً وروعــــةً فــــي الجديــــدِ

وكعادة الشعراء القدماء كانَ يفخر بالأجداد، ويعتّز بتاريخهم وإن رثاءه للأبطال والمناضلين يمتزج بالفخر والمديح. يقول البدوي:

وما حاجتي للنــور والنــور كــامن

بنفـــسيَ لا ظـــلٌّ عليـــه ولا سِـــتْرُ

ومـــا حـــاجتي للكائنـــات بأسْـــرها

وفي نفسي الدنيا وفــي نفــسي الــدهرُ

يرى الدكتور – سالم المعوش – أنّ بدوي الجبل يعكس في شعره مخزوناً ثقافيّاً وصوراً لتاريخ أمتنا وحضارتها. فالشاعر من تلك الأرض العربيّة سورية وهي المركز والحضن الّذي انبثقَ منه فجر الحضارات القديمة.

وقد شكّلت الصحراء لبدوي الجبل ملجأً كلما أحسّ بضرورة العودة إلى الأصول واللجوء إلى مهد الإنسان وحضارته حيث الصفاء والجمال، وحيث الهدوء والفكر القويم، وحيث موئل العروبة والرسالات الإنسانيّة في العقل والعلم والوجدان والحسّ والأخلاق والرؤى الطيبة.

هذه الصحراء أعطت المجد لساكنيها وهؤلاء منتشرون فيها. ومحنة الصحراء من محنة الشاعر لم تعد تحضنه كما كانت فهو مشرّد في نفسه وفي أرضه.

نقلتْنـــي الــصحراء حينـــاً وحينـــاً
نقلتنــــي إلــــى الــــشعوب البحـــورُ

حـــاملاً محنتـــي أجـــرّرُ أقـــدامي
ويـــومي ســـمحُ الغمـــام مطيـــرُ

كلّمـــا أنّ فـــي الخيـــام شـــريدٌ
خجـــل القـــصرُ والفـــراشُ الـــوثيرُ

والصحراء كما يرى الباحث هي صعبة المنال على المعتدين؛ فهؤلاء لن يعرفوا سرها ولا يعرفه إلا من نبت

فيها ورعته ورعاها، وأخرجته إلى الوجود فارساً في قوته المادّية وفارساً في فكره وحضارته وتعاطيه الإنساني. يقول بدوي الجبل مخاطباً المستعمرين الذين عملوا على تقسيم الأراضي العربية وجعلها أقطاراً متفرّقة:

يا بناة الحدودِ لا تعــرف الــصحراءُ

فـــــي زحمـــــة الأعاصـــــير حــــــدّا

الرمــــال الــــسمراء ظمـــأى إلــــى

المـــاء وتـــسقي الــدنيا إبـــاءً ومجـــدا

إنّ الحديث عن الصحراء في شعر بدوي الجبل هو حديث طويل، لقد ملأت صورة الصحراء ورموزها صدر بدوي الجبل ووجدانه وذهنه.

هذا هو الشاعر البدويّ ابن الجبل، هذا هو الشاعر ابن الصحراء والريف. الّذي يقدّر الأصول ويدافع عنها ويتمسك بالقيم والتراث.

الدُّمية المحطّمة

وإعجاب الشَاعر

الشاعر يعرف قيمته الإبداعيّة ويُعلن عن كبريائه وشموخه، وفي قصيدته «الدُّمية المحطّمة» نلمس إعجاب بدوي الجبل بنفسه إعجاباً شديداً؛ والقصيدة تضم أسطورة يونانيّة وأسطورة عربيّة.

تتحدث الأسطورة اليونانية عن «بجماليون» ملك قبرص، الذي نحت تمثالاً رائعاً لامرأة من العاج وأحبّها وعشقها وقد حوّلت «أفروديت» التمثال إلى امرأة تزوجها الملك النحات.

وتتحدث الأسطورة العربية عن الشاعر ديك الجن الحمصيّ الذي تعلّق قلبه بامرأة جميلة وكانت جارية. أحبها أشدّ الحب وقد غار عليها ودفعه حبه لتلك المرأة أن يحرقها وأن يصنع من رمادها قدحاً ظل يشرب منه حتى سكر وثمل، ويعتقد بعض الباحثين أنها قصّة واقعيّة ويعتقد آخرون أنها أسطورة..

تذكّرنا قصيدة بدوي الجبل بالأسطورة اليونانية. فالشاعر هو الّذي صنع الدّمية المرأة من خياله. وهو الذي غالى وبالغ في وصف فتنتها وسحرها، ثم وقع في تقديسها والانقياد لها والخضوع لمحاسنها.

وقد صبّ بدوي الجبل في الدّمية أنفاسه وروحه وخياله ويوحي الشاعر بعبارة – ديك الجن – الّذي صنع من رمادِ المرأة الّتي أحبّها وقتلها كأساً يشرب منه حتى يفقد وعيه.

وفي المقطع الثاني جمع البدوي بين الأسطورتين اليونانيّة والعربيّة، وعندما تنكرت المرأة الجميلة التي صنعها الشاعر من خياله غضب وردّها طيناً كما كانت..

وفي قصيدة «أتسألين عن الخمسين» يفتخر بدوي الجبل بالشباب الّذي يهزم الشيخوخة.. إنّهُ شباب متجدد وإنّهُ شاعر يتحدى الزمان، وإذا بلغَ الخمسين من عمرهِ فهذا لا قيمة له؛ فإن سجايا الشباب وطبائعه وأخلاقه تبقى لا تزول ولا تتبدل، وإنَّ القلب يحتضن شباباً لا يذهب ولا يفنى:

لا تسأليني عن الخمسين ما فعلــت

يبلـــى الـــشباب ولا تبلـــى ســـجاياهُ

يخفق الشباب في قلب الشاعر ويعطي ويزداد عطاء، كلّما انطوى كنزٌ من كنوزِ شبابه فهو يتفجّر في أضلاعه وصدره.

يبدو الشاعر مفتخراً بقدراته؛ فإذا امتلأ شَعره بالشيب فإنّ قلبه يبقى حيّاً نابضاً لا يؤثر فيه العمر ولا يصيبه الوهنُ والعجز.

يتميّز شعر البدوي بصوره الجميلة الساحرة ويبدو الشاعر فخوراً بنفسه.

الشعر والجمال

الشعر والجمال والنبوّة أشياء يصعبُ تحديدها لأنَّها عُلويّة لا يمكن أن تحدد، كما لا يمكن للألفاظ أن تعطيها معانيها تماماّ، والألفاظ أعجز من أن تحدد الجمال والشعر وأن تحدّد العطر والنغم.

ويرى البدويّ أنَّ التجديد لم يفارقْ الشعر العربيّ منذ نشوئه وحتى الآن ..

يتحدّث الأديب ميخائيل عيد عن البدوي قائلاً:

«صارت قصائد الشعراء الكبار جزءاً أساسياً من غذائنا الروحي ومن مكوّنات إحساسنا الجمالي، ومازلنا نعود إليها لنعرفَ المزيد فالمزيد من مكنوناتها. وصلَ إليّ بعضُ روائع بدوي الجبل في أواسط الخمسينيَّات من القرنِ العشرين مع قصائد متفرّقة للمنتجب العاني والمكزون السنجاري ورحت أنهل وأنهل.

يسألنا المتعصّبون لعمود الشعر العربي؛ هل أبرزت الحداثة الشعريّة شاعراً في مثل وزن المتنبي أو في مثل وزن بدوي الجبل ؟، والسؤال مشروع لكنّهُ ذو وجه آخر.

وجهه الآخر: كم أنجبت الأمّة منذ الجاهليّة حتى اليوم من شعراء العمود ممّن لهم مكانة المتنبي أو بدوي الجبل ؟» .

مقارنة بين البدويّ والمتنبيّ

لا بُدَّ من الإشارة إلى كتابٍ للشاعر (عبد اللطيف محرز) عنوانه «الشاعران بدويّ الجبل والمتنبي مقارنات ومختارات»

يرى المؤلف في المتنبيّ أعلى قمّة في الإبداع الشعريّ أطلقتهُ العبقريّة العربيّة، منذ القرن العاشر نشيداً عربيّاً على كل شفةٍ ولسان، وجاء بدوي الجبل بعدَ عشرة قرون ليكونَ أقرب الأصوات الشعريّة إلى هذا النشيد، والتشابه بين الشاعرين بينٌ جليّ ومتعدد الاتجاهات بما في شعرهما من سمات وقصائد مُتقنة وبما واجهه كل منهما من صعوبات.

وقد بلغ الشاعران أعلى مراتب الإبداع، وهما أكثر شعراء العربيّة تمجيداً للشعر، وتعبيراً عن دوره، وعن عزّة الإنسان والإباء والعنفوان وعن حاجة العرب إلى التوّحد. وقد عاشَ الشاعران في عصرين مليئين بالفتن

والاضطرابات، حيثُ تتحكّم العناصر والقوى الأجنبيّة بمصائر العرب.

فنادى كلٌّ منهما بعودة الشعب العربي إلى مسرح التاريخ ليمارس دوره الحضاري من جديد.

وقد انخرط المتنبيّ وبدوي الجبل في العمل السياسيّ وتعرّض الشاعران لظروف متشابهة تحيطُ بها المصاعب وذاقا مرارة الاغتراب.

تميّز الشاعران بينَ الشعراء بكثرة الحكم والأمثال، وقد عرَفَ الناس الشاعرين بلقبيهما وليسَ باسميهما، فلو سألتَ عن الحسين بن أحمد؛ أو عن محمد سليمان الأحمد، فقد لا يعرفهما الكثيرون !!.

دخل المتنبي إلى سجن الإخشيديين والبدوي إلى سجن الفرنسيين وتنقّل المتنبي بعد السجن في بلاد الشام حتى وصل إلى الأمير سيف الدولة الحمداني، وتنقّل البدوي بعد السجن أيضاً بين الجبل والساحل والداخل. ذهب المتنبي إلى مصر وشيراز إلى أن قُتل في طريقَ عودته لبغداد. وقد

عانى البدوي من الاغتراب في منفاه إلى أن عاد إلى وطنه وفارق الحياة.

يقول المتنبي إن أبيات شعره تجعل الحبر يبيضّ من النور:

وما قلتَ مــن شــعر كــأن بيوتــه

إذا كُتبــتْ يبــيضٌ مــن نــوره الحبــرُ

ويعدّ البدوي أن الخالدين هما شعره والزمان وهو لا يعدّ الشمس رغم مكانتها:

الخالدان – ولا أعدّ الشمس – شعري والزمانُ

ويقول البدوي أيضاً:

كلّ مجدٍ يفنى ويبقى لشعري شرفٌ باذخ ومجدٌ أمثِلُ

كل مجدٍ يزول ويظل شعر البدوي خالداً لأنه عز أصيل وشرف عال.

ويرى المتنبي أن الزمان يروي قصائده وينشدها:

وما الدهرُ إلاّ مــن رواه قــصائدي

إذا قلتُ شــعراً أصــبح الــدهر منــشدا

مشى المتنبي على طريق الآلام وهو يشكو وتمتلئ نفسه بالهموم:

سبحان خالق نفــسي كيــف لــذّتها

فيمــا النفــوس تــراه غايـــة الألـــمِ

الدهر يعجــب مــن حملــي نوائبــه

وصــبر نفــسي علــى أحداثــه الحُطــمِ

ويخاطب البدوي البلبل قائلاً:

غنِّ يــا بلبــلُ فــوق الــدوح غــنِّ

أنــتَ أولــى بــالهوى والــشعر منّـــي

لــكَ ســحرٌ مثــل ســحري عجــبٌ

أتُــرى عنــدك حــزن مثــل حزنـــي

وما أجمل قول البدوي:

إن قلبــي خميلــةٌ تُنبــت الأحــزان

ورداً ونرجـــــــــساً وشــــــــــقيقا

لقد عانى الشاعران المتنبي والبدوي في حياتهما وعبّرا عن تجاربهما الغنية. ويرى المتنبي أن العزة هي حقيقة الحياة وجوهرها:

عِشْ عزيزاً أو مُــتْ وأنــتَ كــريم

بــين طعــن القنــا وخفــق البنــودِ

واطلب العزّ فــي لظــى ودع الــذلّ

ولــو كــان فــي جنــان الخلــودِ

ويقول البدوي:

ذلّ مجــدٌ لــم ينتــسب لكفــاحِ

فهــو مجــدٌ رثٌّ المعــالي هزيــلُ

كما يقول:

يزهو الكريم وقلبهُ دامٍ تمزّقــهُ الحــرابُ

يلتقي الشاعران الكبيران في الدعوة إلى الإباء والكبرياء والتعبير عن الحياة العزيزة الكريمة.

يقول المتنبي:

أنا ابن اللقاء، أنــا ابــن الــسخاء

أنــا أبــن الــضراب أنــا ابــن الطعــانِ

أنا ابن القوافي، أنــا ابــن الفيــافي

أنا ابــن الــسروج أنــا ابــن الرهــان

هذا الشعر يدل على عزّة النفس والإباء.

ويقول بدوي الجبل:

أطلّ على الــدنيا عزيــزاً، أضــمّني

إليــه ظــلامُ الــسجن أم ضــمّني القبــرُ

وما حاجتي للأفق ضــحيان مــشرفاً

ونفسي الضحى والأفقُ والشمس والبــدرُ

ومــا حــاجتي للكائنــات بأســرها

وفي نفسي الدنيا وفــي نفــسي الــدهرُ

إن هذه الأبيات تدفع الإنسان إلى الثقة بالنفس والاعتداد بها ونبذ اليأس وانهيار النفس، إن الشاعر يعتز بكرامته، ويطمح إلى الحياة الكريمة.

النّدوّة العربيّة حول شعر البدوي

انعقدت الندوة العربيّة حول شعر الشاعر العربيّ الكبير (بدوي الجبل) بدعوة من وزارة الثقافة وبالتعاون مع مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعريّ في الكويت وذلك في دار الأسد للثقافة والفنون في دمشق بين الفترة الواقعة في ١٦-١٨/آب/٢٠٠٥م بمشاركة عدد من الباحثين والنقاد في سورية والوطن العربي.

أكدّت النّدوة المكانة المتميّزة الّتي شغلها الشاعر في التعبير عن وجدان الأمّة العربيّة في كفاحها نحو الوحدة والاستقلال ومقاومة الاستعمار، وكل ما يكبِّلُ حريّة الإنسان وينال من كرامته.

وقد أضاءت الأبحاث جوانب مختلفة من إبداع بدوي الجبل، وقدّمَ المشاركون أبحاثاً حولَ حياة بدوي الجبل

ومواقفه السياسيّة والاجتماعيّة والرؤى الفكريّة والفنيّة ي شعرهِ، وحولَ جماليات أسلوبه الشعريّ، وحولَ الجانب الإنساني والنقد الخاص بهِ.

وأشادَ المشاركون بتوجيهات وزارة الثقافة حول طباعة أعمال النّدوة في كتاب، وأوصت هذهِ النّدوة الهامّة بإصدار طبعة من الأعمال الكاملة للشاعر الكبير وتأسيس متحف خاص بإبداعهِ.

ورأى المشاركون في الندوة أنّ تواصل وزارة الثقافة تكريم شعراء العربيّة لكي يبقى تراثنا الشعري ماثلاً في أذهان الشبيبة على وجه الخصوص. وهذهِ الندوة الهامة تشجع الكثيرين وتحفزهم على إعادة قراءة شعر البدوي بعيون جديدة.

وقد تحدّث الدكتور محمود السيّد في افتتاح ندوات الجلسة العربيّة عن بدوي الجبل بصفتهُ وزيراً للثقافة فقالَ:

إذا كانَ شاعرنا المبدع يتّسم برقة المشاعر ونبل الأحاسيس وسمّو القيم وروعة البيان، فإنّ الحكمة تزين تلك

السمات كافةً، والحكمة هي أصفى رحيق يقطّره الإنسان ومن حكمه:

قد تطــول الأعمــار لا مجــد فيهــا

ويـــــضمّ الأمجـــــادَ يـــــومٌ قــــصيرُ

ويرى البدوي أن المجد الحقيقيّ هو الّذي يُبنى على المكابدة والمعاناة والمشقّة والصعوبات.

وأكّد الدكتور السيّد أنّ شعر البدوي يتّسم بالخلود لأنّهُ كانَ الناطق بلسان التاريخ والعالم باتجاه إنساني انطلاقاً من إيمانهِ، أنّ وظيفة الشعر تتمثل في الدفاع عن إنسانيّة الإنسان في هذا العالم، وإنّ الّذين حملوا مشاعل المثل الإنسانيّة اندلعت شعلاتهم من وهج التفكير والشعور انسجاماً مع الرغبة الدائمة للتعبير بطريقة تُغني قيم الخير والجمال، وتوضّح الحقيقة تخليداً للأبعادِ الرّوحيّة والعاطفيّة وصولاً إلى خلود العبقريّة الإنسانيّة.

تأثّرَ شعراء كثيرون بأسلوب البدوي الساحر الفريد وصورهِ الرائعة وآفاقهِ الرحبة الأصيلة.

هذا هو شاعر القوميّة والأمّة، ومن الجميل أن ننهل من تجربته الشعريّة ويستحق إبداعه التقدير والإعجاب، ولعلّ الأدباء والنقاد يعطونهُ حقّهُ من البحث والتحليل والاهتمام، فقد كانَ شاعراً كبيراً ولهُ أسلوب متفرّد متميّز، وقد اعتلى قمّة الشعر العربي المعاصر.

سيظلّ بدوي الجبل في ذاكرة الأمّة والوطن وكلّما زرتُ قرية السلاطة أسمعهُ يتغنى بهذا الشعر الجميل المنقوش على ضريحه.

سـيذكرني بعـدَ الفـراق أحبّتـي
ويبقـى مـن المـرء الأحاديـثُ الـذكرُ
ورود الربـا بعـدَ الربيـع بعيـدةٌ
ويُـدنيكَ منهـا فـي قـواريرهِ العطـرُ

ويتحدث الشاعر فاروق شوشة عن علاقة التراث والحداثة عند البدوي «يبقى هذا الأمر سرّ الأسرار في البنية الشعرية لقصيدة بدوي الجبل التي يقف أمامها قارئه، أو دارسه مشدوهاً ومتأملاً معاً.

للموروث حضوره وشموخه وكبرياؤه، وللحداثة حضورها وانطلاقتها ومغامرتها، ومن هذا المزج الفريد المركّب جاءت قصيدة البدوي صورة لعبقريته ونغماً مغايراً لشعراء عصره وزمانه».

إن معاناة الشاعر جعلت الدموع تسيل في أبياته. وتوهّج العنصر الوجداني في عطائه الشعري. وأسلوبه مرهف، وشفّاف، ويتّسم بالقوة والجزالة، وله مكانته الرفيعة في هذا العصر، وقد استلهم التراث وتميّز ببراعة الاستهلاك، واللغة الصافية، والإيقاع الغنائي العذب، والصور الجميلة غير المألوفة التي تبعث على التأمل والمفاجأة، وللبدوي تأثيرٌ بالغٌ في الشعر العربي، وقد لوّنه بألف قوس قزح بريشته المغموسة بالألق، والجمال والسحر.

* * *

المراجع

- ديوان بدوي الجبل، دار العودة بيروت – ١٩٧٨.
- الدكتور شاهر شريف امرير – الموقف والمعاناة في شعر بدوي الجبل – مطبعة اليازجي – دمشق – ٢٠٠٤.
- مدحة عكاش – شعراؤنا المعاصرون، بدوي الجبل، محمد سليمان الأحمد – مختارات، دار مجلة الثقافة\، دمشق ١٩٦٨
- ممدوح عدوان «اختيار وتقديم" بدوي الجبل مختارات – الكتاب الشهري، وزارة الثقافة دمشق أيار ٢٠٠٤.
- سامي الدهان – الشعراء الأعلام في سورية، دار الأنوار، بيروت ١٩٦٨
- أحاديث خاصة لي مع ابن بدوي الجبل السيد أحمد محمد سليمان الأحمد.
- وقائع الندوة العربية عن الشاعر العربي الكبير بدوي الجبل إعداد وجمع: نزيه الخوري – وزارة الثقافة – دمشق – ٢٠٠٧

- الدكتور علي سليمان الأحمد – الإمام الشيخ سليمان الأحمد، عضو المجمع العلمي العربي – ١٩٩١ – لم تذكر دار النشر.
- عبد اللطيف محرز – الشاعران بدوي الجبل والمتنبي، مقارنات ومختارات – الرائد للطباعة – ٢٠٠٢.

المحتويات

الطبعة الأولى / ٢٠١٣م

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة



لا تلْمه إذا أحبَ الشآما
طابت الشام مربعاً ومُقاماً

هاتِ حدّثْ عن الشآم وحدّث
وأطلْ في الحديثِ عنها الكلاما

ما عرَفتُ الغرام لولا رباها
من رُبا جلّقِ عرفتُ الغراما

من أغاني طيورها ساجعات
قد تعلمتُ هذه الأنغاما

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها